

## الضمير

تصريفه . الآراء فيه . امكان تربيته . درجاته

الإنسان : مادة . وروح .

أما المادة . فهي تلك التي تراها تتألف من : يدين . ورجلين . وعينين  
ولسانا . وشففتين . إلى آخر ما تراه من أجزاء هذه المادة التي يتكون منها  
هذا الانسان « الخارجى » الذى يأكل ، ويشرب ، ويمرض ، ثم يموت ،  
ويفنى ، فيستحيل إلى تراب تدوسه الأقدام .

وأما الروح فمن أمر ربى لا تراها ، ولكن بآثارها تشعر بكل ما يؤلف  
« كينوتها » داخل نفسك . ولنصطليح على تسميتها بانسان « داخلى » .

لكن : إذا كان ذلك الإنسان « الخارجى » يتألف مما ترى من أجزاء  
فصمم يتألف هذا الانسان « الداخلى » ؟

إنه يتألف من : « شهوات » و « انفعالات » و « شعور » ومن جزء  
آخر له الرياسة العليا على هذه الأجزاء كلها . ذلك هو « الضمير »

فالضمير هو الرئيس الأعلى ، أو ينبغى أن تكون له الرياسة العليا  
المطلقة على كل هذه الأجزاء التي يتألف منها هذا الإنسان « الداخلى » .

والإنسان الذى لا يقدم هذا الجزء الفاضل — الضمير — على سائر  
أجزاء طبيعته . أو الذى يجعله يحكم ويُرشد أحيانا فقط ، وتبعاً للظروف  
والأحوال . هذا الانسان لا يتمشى فى أفعاله مع تأليف طبيعة الانسان

«الداخلي» . هذه الطبيعة التي تقتضي أن نعرض سيرتها كلها على تلك  
«الرياسة» . وأن تنتظر أوامرها ، وأن ننفذ على أنفسنا سلطانها ، وأن  
نجعل موافقتها هي شغلنا الشاغل . وإن هذا هو شغل الفاعل الأخلاقي  
كله ليس إلا .

فالضمير إحساس ، والضمير قوة من غريب أمرها أنها تجمع بين هذه  
السلطات الثلاث : السلطة التشريعية . والسلطة التنفيذية . والسلطة القضائية .  
ولا يعرف صاحب «الضمير» شيئاً من الأشياء أتقن من معرفته  
ضميره على هذا النحو . ولنوضح ذلك بمثال :

قد يستفزك إنسان مثلاً بكلمة تُخرجك عن وعيك ، فتضربه بيدك  
أو تتركه برجلك ، أو تنفيه إلى دار نازحة في مكان سحيق ،  
وبعد أن تثوب إلى رشذك ، وتجلس وحدك تسمع في أعماق نفسك  
صوتاً يسألك :

لماذا كل هذا ؟ أين الحلم ؟ وأين الرحمة ؟ وأين سعة الصدر ؟ وما الفرق  
بينك وبين الجاهل الذي لا يستطيع أن يحكم نفسه ؟ إلى آخر ما تسمعه في  
مثل هذه الحال من أسئلة . ثم عقيب ذلك تسمعه هو نفسه يسألك أسئلة  
لا تسير مع هذا الاتجاه ، بل في اتجاه آخر تسير . تسمعه يقول :  
إنه يستحق هذه الضربة ، أو هذه الركعة ، أو هذا النفي ، لأنه من طينة  
يطفئها الحلم ، ويبطرها النساح ، ويضرها سعة الصدر ، فما فعلته حسن ،  
وما أقدمت عليه هو الصحيح .

تسمع هذين الرأيين المتباينين كن يسمع محامين اثنين في قضية واحدة :

أما أحدهما فيثبت التهمة ، وأما الآخر فينفىها ، أو أحدهما يبرىء المتهم والثاني يدينه .

وفي النهاية يصدر الحكم إما لك ، وإما عليك . هذا الصوت الذى تسمعه فى قرارة نفسك إذا نظرت إليه من ناحية أنه يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الصواب والخطأ والحق والباطل ، إذا نظرت إليه من هذه الناحية فهو « مشرع » أو « سلطة تشريعية » .

وإذا نظرت إليه من ناحية أنه يحكم بالحق بين قواك ، إذا نظرت إليه من هذه الناحية فهو « قاض » أو « سلطة قضائية » .

وإذا نظرت إليه من ناحية أنه يسرك ، أو يؤلمك : يسرك بنتيجة الفعل الحسن ، ويؤلمك بنتيجة الفعل الباطل ، إذا نظرت إليه من هذه الناحية فهو « منفذ » أو « سلطة تنفيذية » .

وقد يكون كذلك هذا الصوت « شاكياً ، أو شاهداً ، « زاجراً » أو « واعظاً » . وعلى حمّة من القول فهو مركز التوجيه فى الإنسان .

هذا الصوت الذى تسمعه قائماً فى نفسك على هذا النحو ، مستقراً فى عقلك على هذا الوضع ، كامناً فى شخصيتك على هذه الصورة ، هذا الصوت هو « الضمير » .

وإذا عرفت أن المحكمة تتألف من : « قاض » و « محام » و « مدّع » و « شاهد » و « منفذ » إلى آخر ما يلزم للمحكمة : إذا عرفت هذا فأنت تستطيع أن تقول فى تعريفه : إن الضمير هو « محكمة كبرى ترجع إليها كل أعمال الإنسان الخارجية » .

هذه المحكمة قائمة في النفس الإنسانية على ذلك الوضع ، وهذه المحكمة  
يشعر بها كل إنسان صغيراً كان أم كبيراً عالماً أم جاهلاً . ذكياً أم غيبياً فهي  
من الأمور المشاهدة لا تحتاج إلى برهان . هذا هو الضمير وهو أول حاكم  
يسألك ، وأول قاض يقتضى عليك .

و « الضمير » وليد « الاجتماعية » يعنى لو فرضنا أن ابن آدم لم يُخلق  
إنساناً « اجتماعياً » لما كان هناك « ضمير » . فالضمير ابن الاجتماعية ، منها  
نشأ ، وإليها يعمل .

وأنت في هذه الحياة التى تجيها بين الناس لك شخصيتان إثنان .

١ — شخصية ذاتية .

٢ — وشخصية قومية .

وأنت بمقتضى شخصيتك القومية ملزم بأن تجعل « ساوكتك » مطابقا  
لمصلحة الجماعة لأن الجماعة هى التى تحافظ على حياتك ، وهى التى تقدم لك  
ما تحتاج إليه . وهى التى تمدك بوسائل الحرية ، فإذا تمتعت فى الجماعة بأمنك ،  
وقوتك . وحررتك ، كان هذا دليلاً على رفى الجماعة وصلاحياتها . وإذا  
فقدت فى الجماعة أمنك ، وأضعت فيها قوتك ، وعشت فيها خائفاً قلقاً  
مضطرباً فهي جماعة فى حاجة ملحة إلى أن تفتح عينيها على أن تحقق  
لأفرادها وسائل الحياة الصحيحة .

وإذا كان الضمير محكمة تنظر أعمالك الخارجية ، وكان الضمير وليد  
« الاجتماعية » فهل ولد هذا الضمير كحاسة فطرية كالعين ، أو الأذن مثلاً .  
على معنى أنك تستطيع أن تميز بفطرتك بين الحق والباطل ، وتفرق بين الخطأ

والصواب ، كما تميز العين بين الألوان ، وتفرق الأذن بين الأنغام ،  
أو هو قوة مكتسبة على معنى أنه ثمرة تخلقها التربية ؟

يقول « جان جاك روسو » : « لا أحد قد كان علّم كلب رسو أن  
يطارد النُحُلَ — حيوان — ويقتله بينما هو لا يأكله ، يريد بذلك أن  
هذا الحيوان يملك غريزة فطرية توجهه وتقوده نحو أى فعل يريد ، وليس  
الكلب فحسب ، بل أفراد الحيوان كذلك تملك مثل هذه الغريزة ، فمثلا  
ترى القطّة تأتي « فتخطف » من أمامك شيئاً ثم تجرى به . لماذا ؟ لأنها تملك  
غريزة فطرية بها أحست أنها قد فعلت ذنباً .

ومن هنا يرى « جان جاك روسو » أن ابن آدم مزود بمثل تلك الغريزة  
الفطرية كما هو الشأن في الحيوان ، وأنه بهذه الغريزة الإلهية يفرق بين الخير  
والشر كما تفرق العين بين الأبيض والأسود ، ولا غرابة في ذلك من الإنسان  
ذى العقل مادام الحيوان الذى لم يُرزق عقلاً يفرق بين الذنب وغير الذنب  
وبين الإثم وغير الإثم .

هذه الغريزة الفطرية ، أو هذه البصيرة التى بها — يعرف الإنسان  
طريق الخير والشر ، هى : « الضمير » وهذا الضمير يحمله الانسان منذ  
ولادته ، وهو ثقة لا يُخطئ ، وهو خير دائماً . وهو الوسيلة الوحيدة  
للهداية فى الطبيعة الانسانية .

هكذا يقرر « روسو » ، ويقرر معه « كانت » ، أن الضمير « هاد موثوق  
به ومعصوم من الخطأ » <sup>(١)</sup> وما عليك إذا أردت أن تسلك سلوكاً خيراً

---

(١) عن المشكلة الاخلاقية والفلاسفة تأليف « أندريه كريسون » ترجمة  
الدكتور عبد الحليم محمود والاستاد أبو بكر ذكري .

إلا أن تستنصحه ، فإنه يومى إليك الواجب دون تشريع .  
ويترتب على هذا الرأى فى « الضمير » أنه لا حاجة لا إلى العلم ولا إلى  
الفلسفة لكي تكون حكماً وفاضلاً . لأنك تُدرك الخير بفطرتك ، وأولاً أنك  
تُلمم الطيبَ بأحاساس يوحى إليك .

وكل امرئ يميل نصائح ضميره يحكم على نفسه بآد التماسه ، وإن  
يتيسر له الصفاء ، ولا الراحة ، ولا الرضا الأخلاقى . وإن أشد الأشياء  
على الانسان هو أن يحكم على نفسه حكماً يتبعه عقابه لذات نفسه بالنفور  
الباطنى من نفسه ، لأن عقاب الضمير يصيب الانسان فى أصل انتباهه  
إلى نفسه ، لا فى شيء عارض : والمال لا يُخفف ألم الضمير ، والمتاع ،  
أو الجاه كذلك لا يخفف من ألم الضمير شيئاً وإنما الذى يُخفف ألمه شيء  
واحد ، وهو أن توافق طبيعته ، وما طبيعته إلا الفضيلة . وإذا كانت  
الفضيلة طبيعة الضمير ، فإن أشد الأشياء مضادة لهذه الطبيعة هى الرذيلة .  
هذا رأى .

ويقابل هذا الرأى الذى يقول : إن الضمير حاسة فطرية تفرق بين  
الخير والشر كما تفرق العين بين الأبيض والأسود ، يقابله رأى آخر  
يقول : بل هو « قوة مكتسبة » ، وثمره تخلقها التربية .

وسند هذا الرأى أن الناس فى كل العصور ، وفى جميع الأقطار  
يستشيرون ضمائرهم ، ولكنها لا تُسمعهم جميعاً لحناً واحداً ، إذ أن ما يظهور  
عدلاً وخيراً لبعض النفوس الخالصة ، فى عصر خاص ، لا يظهر عدلاً  
ولا خيراً لنفوس أخرى هى أيضاً خالصة ، ولكنها عاشت فى عصر آخر ،

أو مكان آخر . فلو كان الضمير معصوما بطبيعته لأرشد الناس جميعاً إلى طريق الهدى ، وجَنَّبهم طريق الضلال وعلى رأس من يقول بهذا الرأي « مونتيني »<sup>(١)</sup> و « لوك »<sup>(٢)</sup> و « ديدرو »<sup>(٣)</sup> . هؤلاء وغيرهم يهزأون من دعوى عصمة الضمير<sup>(٤)</sup> . وأمثالتهم على ذلك كثيرة عند ما توازن بين أحوال الضمير ، خلال مختلف العصور : منها :

١ - في العصور القديمة كان نظام الرق مشروعاً حتى أن « أرسطوطاليس » وقلبه من أشرف القلوب ، وعقله من أقوى العقول كان يبيحه فيقول في كتابه « السياسة » ص ١٠٣ : « ومهما يكن من شيء فَبَيِّنُ » أن البعض هم بالطبع أحرار ، والآخرين بالطبع عبيد ، وأن الرق في حق هؤلاء نافع بمقدار ما هو عادل ،

٢ - كانت القوانين الرومانية القديمة تجعل من المرأة ، والأطفال ملكاً للزوج كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً ، ولهذا كان للأب من بين الحقوق الأخرى ، الحق في أن يعرض ابنته المولودة حديثاً في السوق العام إذا كانت له بنت أخرى<sup>(٥)</sup> .

---

( ١ ) كاتب وأخلاق فرنسي عاش ما بين ١٥٢٣ - ١٥٩٢ م

( ٢ ) أنظر « حاشيته » ص ١٢٦ بند « ٦ » من هذا الكتاب

( ٣ ) كاتب وفيلسوف فرنسي من مفكري القرن الثامن عشر الميلادي . كان أبوه تاجر - كاشين صغير ولاكن حظّه وجده كانا عاملين في أن يلمع اسمه بين مشاهير ذلك القرن ، وأن يكون زعيم حركة فكرية عظيمة .

( ٤ ) المشكلة الاخلاقية والفلسفة ص ٢٣

( ٥ ) المصدق السابق

٣ — كانت المرأة المتزوجة في « أنجلند » لا يمكنها أن تتصرف البتة في مالها الخاص ولزوجها أن يتصرف في هذا المال بما يشاء كما يشاء ، ولا يحول دون ذلك حائل . وقبل العهد « الفكتورى » بقليل جداً باع رجل زوجته في « سميثفيلد » وكان يقودها كالداية ، وفي عنقها خطام<sup>(١)</sup> فهل يمكن ذلك الآن ؟ ١١١ .

٤ — كان ضمير العربى فيما مضى يُسيح له أن يقتل ابنته ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم . « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَالْإِنْعَامِ ، آيَةُ ١٤٠ . » .  
ويقول : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، (الانعام ، آية ١٥١) . »

ويقول : « وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ أَنْ كُنْتُمْ خَاطِئِينَ كَبِيرًا » (الاسراء ، آية ٣١)  
٥ — كانت « الزانية » في بعض ضواحي روسيا تعاقب بأن يربطها الفلاحون عارية تماماً إلى مركبة يجرها بغل عجوز ، يعتليها الزوج المخدوع حاملاً سوطاً طويلاً يضرب بها الحيوان مرة والمرأة مرة أخرى بصورة منتظمة ، فيتفجر الدم منها ، وهى تسير بجهد مرهقة مطاطة الرأس ، ووراءها حشد من الرجال والنساء والأطفال يضحكون لما يرون ، ويتمتعون بتسلية لا تسنح فى كل حين ، وهم لا ينقطعون عن توجيه الشتائم

---

( ١ ) من مقال للكاتب الروائى الاشتهر « شارلس جارفس » عن كتاب المرأة والسياسة تعريب محمد عبد العزيز الصدر .



وقارص الكلام إلى الزوجة الخائنة ، واللصقات ، وكتل الطين ، أو الحجارة من وقت لآخر ، فإذا وقعت أرضا انهار الزوج عليها بالسوط دون رحمة أو شفقة حتى تنهض ، وتعاود المسير من جديد . هكذا كانوا يعاقبون خيانة المرأة ، أما خيانة الرجل فلا عقاب عليها <sup>(١)</sup> « وهذا ضمير » .

وتكفي هذه الأمثلة دليلا على اختلاف « الضمير » باختلاف الزمان والمكان بل إنك لترى من مظاهر اختلاف الضمير في الجماعة الواحدة المتحضرة ما يكفي لتأييد دعوى من يهزأ بعصمة الضمير ، فها هو ذا « الرأسمالي » الذي يدافع عن نظام « الميراث » و « الشيوعى » الذى يهاجم هذا النظام . وها هو ذا « الديمقراطي » — الديمقراطية معناها حكم الشعب الصالح — الذى يقرر ضرورة الانتخاب العام ، و « الأرستقراطى » — الأرستقراطية معناها حكم « الممتازين » ، أو « الأخيار » من الناس — الذى يعلن عدم ملامة هذا النظام . . . أليس فى هذه المظاهر المختلفة فى الجماعة الواحدة ، وفى الزمن الواحد ما يكفي دليلا على فساد رأى من يقول : بأن الضمير خير دائما ، وأنه معصوم أبدا ؟

وهناك رأى ثالث لفريق من الفلاسفة الماديين يبتعد البعد كله عن هذين الرأيين المتقدمين : ذلك أن هذين الرأيين يتفقان فى الاعتراف بالضمير ، وإنما يختلفان فقط فى : هل هو « فطرى » أو « مكتسب » أما هذا الرأى الثالث فإنه يشكر « الضمير » إنكارا من أصله ، فليس هناك — عندهم —

---

(١) مقدمة كتاب « الأم » للأديب « الروسى » « مكسيم جوركى »

(١) سلسلة عيون الادب العالمى

شيء اسمه « ضمير » وليس هناك شيء اسمه « فضيلة » وليست هناك قيم أخلاقية، وليست الأخلاق إلا « اختراع الضعفاء لكي يُقَيِّدُوا بها » سلطان الأقوياء ، ولذلك ينادون بأن نكون حراً على « الأخلاق » .

يقولون : يجب أن نحطم هذين القيدَين تحطيمًا : قيد « العادل » وقيد « الظالم » حسبما جاء في القانون الموضوع ، ولنتخطَّ في نظرنا إلى الأشياء ذلك « الخير » ، وذلك « الشر » يجب أن نترك العنان لطبيعتنا المطلقة . يجب أن نكون كذلك في بنيتنا الطبيعية ، وفي قوتنا العقلية ، وفي مزايانا الخلقية . يجب أن يكون لنا من الجسارة ما به نحيا حياة حرة سافرة ، وفي وضع النهار ، وإذا ما اقتضى ذلك أن نسير فوق طريق من الجماجم فعليّنا أن نسهقها بأقدامنا دون أن يتحرك ضميرنا بلام . يجب أن تكون لنا « قلوب قاسية » . يجب أن نرسل صرخة الحرب دون وجل ، أو ندم في وجه مصطلحات العالم ، ومصطلحات أخلاق القطيع . يجب أن نرسلها من البوق النشوان بخمرة النصر ، وحميا الكبرياء .

وعلى هذا فلن تكون القوانين الأخلاقية إلا مبتدعات جديرة بالازدراء هي وأصحابها الذين وضعوها . ولن تكون المعاهدات الدولية أكثر من « قصاصات أوراق » . إن الإرادة الوحيدة الصحيحة إنما هي « إرادة القوة » ، وإن الحق الحقيقي إنما هو الذي يعمل ولا يُعمل عليه . إن القوة هي كل شيء ، وهي وحدها التي تقرر الحق <sup>(١)</sup>

---

(١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ٣٢ ، ٣٣ .

وزعماء هذا الرأي الثالث « كلبيسكليس »<sup>(١)</sup> قديماً ، و « نيتشه »<sup>(٢)</sup> حديثاً .  
هذه آراء ثلاثة في الضمير . فما موقف الإسلام منها ؟ أينكر الإسلام  
الضمير كالرأي الأخير . أم يعترف به كالرأيين الأولين . وإذا كان يعترف  
به فهل هو في نظر الإسلام حاسة فطرية أو قوة مكتسبة ؟ .

إن الإسلام لا ينكر « الضمير » بل يعترف به . فيقول تعالى في كتابه  
العزيز : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ  
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ( سورة ق آية ١٦ ) .

ويقول : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ »  
( سورة الأنعام ١٥٢ ) .

ويقول : « وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ  
إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنْ

---

(١) أحد مشاهير « السوفسطائيين » وصاحب مذهب « القوة » .

(٢) هو : « فردريك نيتشه » فيلسوف ألماني « ١٨٤٤ — ١٩٠٠ م » كان  
أديباً وكاتباً في الأخلاق ، وكان يؤمن بمذهب النشوء والارتقاء ، وكان من آرائه  
في الأخلاق : « أن آراءنا في الفضائل والواجبات يجب أن تنقح من آن لآخر على  
حسب تغير الأحوال المحيطة بالناس » وقال : إن الفضائل الصراغية كالوداعة ،  
والتواضع ، والإحسان ، قومت بأكثر مما تستحق . ولقب الأخلاقية الصراغية  
بأخلاقية « العبيد » وقال : يجب أن تعوض هذه الأخلاقية بأخلاقية السادة . وهذه  
الأخلاقية العالية يجب أن تكون فوق القانون . والمثل الأعلى للإنسان عنده إنسان  
له الحرية النامة في الكفاح ليبقى . يبحث عن لذته ، ومباه قوته ، ولا يعرف الشفقة .

الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ، ( سورة الأعراف ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ) .  
ألمست ترى — على ضوء ما تقدم — أن « الوسوسة » و « التزغ » و « الأمر بالعدل » كل هذه الأشياء من طبيعة عمل « الضمير » ؟ .

إن صوت الضمير عند ما يهتف بك قائلاً : « كن عادلاً » ، « هذب نفسك » ، « اضبط نفسك » ، « احترم الآخرين » ، « ساعدهم » ، فإن هاتيك الأوامر تكون دليلاً على أن « الضمير » موجود بالعمل ، وأنه يؤدي عمله . وذلك ما يشير إليه القرآن الكريم في هذه الآيات البينات .

أما « عصمة » الضمير فهذه مسألة ينكرها الإسلام ، والأدلة على ذلك كثيرة . منها قوله تعالى : « وَمَنْ يَكْسِبْ لِحُزْنِهِ فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ » ( سورة النساء ١١١ ) ومنها قوله : « مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » ( سورة الاسراء ١٥ ) وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » ( سورة المائدة ١٠٥ ) وغير ذلك كثير .

وأما أن « الضمير » حاسة فطرية ، أو قوة مكتسبة فإن حديث رسول الله صلوات الله عليه يؤيد الرأي الأول فلقد ورد أن وابصة بن معبد (١) .

(١) صحابي سكن الكوفة ثم تحول إلى « الرقة » فأقام بها إلى أن مات ، وقبره عند منارة المسجد الجامع بالرافقة ، وكان له بالرقة عقب من ولده عبدالرحمن بن صخر قاضى الرقة أيام هارون الرشيد . روى عن رسول الله ، وروى عنه ابنه عمرو ، وسالم ، والشعبي ، وزباد بن أبي الجعد وغيرهم .

ذهب إلى رسول الله . فقال له صلوات الله عليه : جئت تسأل عن البر ؟ فقال له وابصه : نعم يا رسول الله . فقال : « البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك . أفلمست ترى في هذا ما يؤيد أن الضمير قوة فطرية ؟ وسواء أكان الضمير « حاسة فطرية » أم « قوة مكتسبة » فإنه ليس بمعصوم . عن الشر « الأخلاق » - الشر « الطبيعي » ، كالذى تعلن وجوده الظواهر الطبيعية لا يتعلق به الحكم الأخلاقي - لذلك وجب أن نؤكد بكلمة « أرسطو طاليس المشهورة التي قالها في كتابه « الأخلاق إلى نيقوماخوس » ج ١ ص ٢٢٩ - : « ليس لأجل العلم بما هي الفضيلة أن أوغلنا في هذه الأبحاث ، بل من أجل أن نتعلم كيف نصير فضلاء وأخياراً » .

نعم . ولكن : كيف نصير فضلاء وأخياراً ؟ أو هل يمكن تربية الضمير لتكون فضلاء وأخياراً ؟ هذه هي المسألة ، وهذه هي النتيجة التي قدمنا لها بتلك المقدمات الطويلة العريضة . وهذه هي المسألة التي يهدف إليها كل مشغل بالأخلاق قديماً وحديثاً . وكلُّ يستهدى مذهبه في « تعبيد » الطريق الذي نسلكه كي نصير فضلاء وأخياراً .

أما « أبيقور » ، ذلك الذي يرى أن « الخير » المطلق هو اللذة . و « الشر » المحض هو الألم فيرى أن عمل الأخلاق ينحصر في تعليم بني البشر فن الحصول على اللذة وتجنب الألم . لذلك هو يقول لك : إذا أردت التخلص من الألم فما عليك إلا أن تفعل شيئاً واحداً . ذلك هو أن « تنظم رغباتك » ، وتسهل عليك في رياضة نفسك على تنظيم الرغبات يبين لك أنها على ثلاثة أنواع :

- ١ - رغبات طبيعية ضرورية مثل : الأكل . والشرب . والنوم .
- ٢ - ورغبات طبيعية وليست بضرورية : كالرغبة الجنسية .
- ٣ - ورغبات ليست بطبيعية وليست بضرورية : مثل : الرغبة في البخل ، وفي الطموح أما الأولى فلا يمكن أن تستغنى عنها مطلقاً وإلا تعرضت للبوت .

وأما الثانية فمن العبث أن يتحاشاها الإنسان تحاشياً تاماً ، وله عند سئوح الفرصة أن يُرضى بعضها ، فأن ذلك لا يخرجها عن أن يكون حكماً .  
وأما الثالثة : وهى التى ليست بطبيعية ، وليست بضرورية فيقول « أبيقور » بشأنها : « إن من الجنون أن تريد إرضاءها ، <sup>(١)</sup> ولماذا ؟ لأنها كثيرة لا تحصى ، غالية لا ترضى ، متعطشة لا تروى إنها تتطلب من المتاعب ما لا يكاد ينتهى ، وما هى إلا تغرير دائم ، وخداع مستمر ، وليس على الحكيم إلا أن يعدل عنها عدولا تاماً .

وأما « سقراط » فنهجه فى تربية الضمير يتلخص فى أن تروض نفسك على « التبصر » ذلك التبصر الذى هو مرد الفضائل جميعها عند سقراط ، وعند أبيقور ، وغيرهم ، أو بعبارة أخرى أن تقوى عقلك ضد شهواتك .  
وإن « التبصر » لا يريد منك إلا أن تسلك الطريق الذى يوصلك إلى « السعادة » بأن تسير على « العدل » . و « الاعتدال » ، و « الشجاعة » و « الإخلاص » ، ولقد ضرب « سقراط » لذلك المثل الأعلى فى « الشجاعة » وفى « الإخلاص » للقانون بأن قابل الموت بصدر رحب ، ورفض أن

---

( ١ ) المشكلة الاخلاقية ص ٧٢

يهرب من السجن حتى يموت عن نفسه راضياً . فضرب بموته أقوى الأمثال  
قيل له مرة : مارأيـناك قط مغموما ؟ فقال : لأنه ليس لى شىء متى  
ضاع منى وعدوته اغتممت عليه ، وكانت هذه الكلمة : « من غلب عقله  
هواه افترض » كانت هذه الكلمة تلازمه أينما حل وسار ذلك بأنه قد سجلها  
على خاتمه بنقشها عليه .

وأما « أرسطو طاليس » فيرسم منهاجه فى كتابه « الاخلاق » ج ١  
ص ٢٣٩ يقول : إن الانسان يصير « عادلا » بآتيانه أفعالا عادلة .  
و « معتدلا » بآتيانه أفعالا معتدلة . وأنه إذا كان الانسان لا يمارس البتة  
أفعالا من هذا الجنس فن المحال عليه أيا كان أن يصير فاضلا ، ثم يحمل  
حملة شعواء على أولئك الذين يقولون مالا يفعلون فيقول : « ولكن عامة  
الناس لا يمارسون هذه الأفعال وبالتجاءهم إلى أقوال فارغة يظنون أنهم  
يفلسفون ويتخيّلون أنهم بهذه الطريقة يحصلون فضائل حقيقية . ذلك هو  
على التقريب ما يفعله أولئك المرضى الذين يستمعون بعناية للأطباء ، ولكن  
لا يفعلون شيئا مما يؤمرون . كما أن هؤلاء لا يكادون يكونون أصحاء  
الأجسام بأن يعالجوها على هذه الطريقة . كذلك الآخرون ان يكونوا  
أصحاء النفوس بأن يفلسفوا على هذه الطريقة . »

و « أرسطو » لا يسمي فضلاء إلا الناس الذين يأتون فى العادة أفعال  
الفضيلة عالمين ماذا يفعلون . أو بعبارة أخرى يشترط الشروط الآتية  
فيمن يسميه فاضلا :

١ — أن يعلم ماذا يفعل .

- ٢ — أن يريده بالاختيار التام ، وأن يريد الأفعال التي ينتجها لذاتها .  
٣ — أن يفعل الفعل بتصميم ثابت لا يتزعزع على أن لا يفعل خلافا  
لذلك البتة .

هذه آراء ثلاثة من كبار فلاسفة الأخلاق يرون أن الضمير الإنساني  
يمكن تربيته ، بأن تروض نفسك بالفعل على ضوء ما يقدمونه من نصيحة .  
وإني ألاحظ أن الرأي الأول — رأى الأبيقوريين — وإن صلح  
— على ضوء رأيه في تنظيم الرغبات — لإيجاد « مثل » عليا فليس يصلح  
لمسيرة « التقدم » لأنه يقتل في الفرد روح « الطموح » لأنه — كما رأينا —  
يشير بقتل الرغبات التي ليست بطبيعية وليست بضرورية .

وخير ما يربى عليه الضمير هو « الاعتدال » وهذا هو ما يشير به  
الإسلام في قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » ( البقرة ١٤٣ ) .  
ولأستاذي « أحمد لطفي السيد » في هذا الباب « وصف » للطابع الإنساني ،  
فيه « إرشاد » يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

يقول : صَعِبَ على النفس الإنسانية أن تعرف نفسها حقيقة ، وأن  
تضع نفسها من هذا الوجود في مكانها من غير ضعة ولا اعتلاء . من غير  
تفريط ، ولا إفراط . فأن غاية الحكمة أن تعرف نفسك . وأن النفس  
الإنسانية قد تتغافل عن درجتها من الوجود . فتنزل عما يليق بها  
إلى مواطن الهوان ، والخسة . وقد تتعالى عن مركزها الطبيعي أو العرفي ،  
فتكون نفسها كاذبة ، وتفقد بكنذها ثقة غيرها من النفوس ، وجاذبيتها  
نحوها . فتتعرف نفسك بآلات القياس العلمية ، وارْتَبَأَ بها عن



الضعف ، وأنزل بها عن الادعاء ، وابتسغ بين ذلك وسطاً تألف  
الناس ويألفك الناس ، فإن المؤمن آلف مألوف (١)

أرباً بنفسك عن الضعة ، وأنزل بها عن الادعاء ، وابتسغ بين ذلك  
وسطاً تألف الناس ويألفك الناس . هذا هو الطريق العملي الذي يرسمه  
مربي الجبلين وعميد الفلسفة في الشرق « أحمد لطفي السيد » لمن يريد أن  
يكون « إنساناً » وهذه الكلمة فوق أنها ترسم الخطوط الأولى لذلك  
الإنسان ، فإنها تشير إلى درجات الناس وبالتالي إلى درجات للضمير  
الإنساني . في هذه الحياة .

وقبل أن نبين هذه الدرجات مأخوذة من واقع الأمر على مسرح  
هذه الدنيا نشير إلى أن الذين يقولون : « إن الضمير هاد موثوق به  
ومعصوم من الخطأ » يتبع رأيهم هذا « طبعاً » أن الضمير لا يمكن تربيته ،  
أو هو لا يحتاج لتربية ولا تهذيب لأنه لا يضل ولا يغوى .

ويجاب « كانت » على من يستعرض بهذه « المخازي » التي تراها تمثل  
على مسرح بني البشر يجاب بأن « الإرادة » هي مناط الخير والشرية  
لا « الضمير » فوحي الضمير خير دائماً . إنما القوة التي تنفذ وحي الضمير  
هي « الملعونة » حينما تكون شريرة سيئة التكوين . .

وسواء أكان « الضمير » هو الذي يوحى بالشر ، أم كانت الإرادة  
أم الشهوة ، فإن الضمير يتفاوت كما يتفاوت العقل بين الناس .

---

(١) المنتخبات ح ١ ص ١٠٩

## درجات الضمير

ترى العقل بين الناس يتفاوت ، فهذا ذكى ، وهذا غبي . وذلك على درجة لا بأس بها في إدراكه الأشياء ، وتصريفه لأمور نفسه والناس . فهل شأن الضمير كشأن العقل في هذه الناحية ، على معنى أن الضمير يتفاوت بين الناس كما يتفاوت العقل ؟ وإذا كان فما مظاهر هذا التفاوت ؟ وهل يمكن أن يسلم الانسان سلامة مطلقة من تأنيب ضميره فيعيش عيشة إنسان « نذل » بلا ضمير دائما . كما ترى من يتجرد من مظاهر العقل ، فيعيش عيشة إنسان « أبله » ؟ وأخير فهل المجتمع هو الذى يصنع الضمائر ، أو ماذا ؟

ذلك ما سنحاول أن نقف عليه في هذا الباب . وما دمنا نُشَبِّه الضمير بالعقل في هذه الناحية ، وقد عرفنا ما هو الضمير ، فقد يكون من الحسن أن نقدم لذلك بكلمة عن العقل .

كلمة « عقل » مأخوذة من عقل البعير لأنه يمنع ذوى العقول من العدول عن سواء السبيل . وتُطْلَق ويراد بها مدلولات كثيرة : فيراد بها — فى العَرَض — حذف الحرف الخامس المتحرك من « مُفَاعَلَكْتَن » ، وهى اللام ، ويُسمى الذى وقع فيه ذلك الحذف « معقولا » ، وتُطْلَق ، ويراد بها — فى الفقه — الدِّية لأنها تعقل أى تمنع وتمسك الدماء من أن تُسْفَكَ ولذلك يسمونها « العاقلة » ، وتطابق — عند الحكماء — ويراد بها مدلولات كثيرة . منها : « ما يُعْقَل به حقائق الأشياء » ، ومنها أنه « جوهر مجرد عن المادة فى ذاته مقابِل لها فى فعله » ، وهنا يقول « الجرجاني » فى تعريفاته :

إن هذا التعريف يشمل النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله : « أنا » ، وقيل في تعريف « العقل » : « انه قوة لهذه النفس » ، وهذا التعريف صريح في أن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة . وقالوا : ان الفاعل في التحقيق هو « النفس » و « العقل » آلة لها بمنزلة السكين بالنسبة الى القاطع أو بمنزلة نور الشمس الى « العين » فكما أنك بنور الشمس تدرك المبصرات فكذلك بنور العقل تدرك المعقولات . وقيل : ان « العقل » و « النفس » و « الذهن » كل هذه أسماء لمسمى واحد . الا أنها سميت « عقلا » لكونها مدركة . وسميت « نفسا » لكونها متصرفه . وسميت « ذهنا » لكونها مستعدة للإدراك .

ويقسمون « العقل » الى ثلاثة أقسام : « عقل بالملكة » . و « عقل بالفعل » . و « عقل مستفاد » : فالعقل بالملكة هو « علم بالضروريات ، واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات ، والعقل بالفعل ، هو « أن تصير النظريات مخزونة عند القوة بتكرار الاكتساب بحيث يحصل لها ملكة الاستحضار متى شاءت من غير تجشم كسب جديد » والعقل المستفاد . هو « أن تحضر عنده النظريات التي أدركها بحيث لا تغيب عنه » (١) .

وسواء نظرنا الى العقل من ناحية أنه « استعداد » لكسب المعلومات ، أو من ناحية أنه « جملة ما يجيء الإنسان من معلومات » سواء نظرنا اليه من هذه الناحية ، أم من تلك فانه « وجه » من وجوه النفس الإنسانية ، والضمير كذلك « وجه » من وجوهها . ولو تصورنا النفس بقطعة « نقود » مثلا فان وجه « العقل » مكتوب عليه « يميز الحق من الباطل » ، ووجه

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٠٢

« الضمير » مكتوب عليه « مركز التوجيه في الانسان » وكما أن قطعة النقود لا تستطيع أن تبستاع بها شيئاً اذا كانت بوجه واحد ، فكذلك « النفس » الانسانية لا تستطيع أن تعمل عملاً « أخلاقياً » الا بالاثنين معا « الضمير » و « العقل » .

واذا كان العقل يتفاوت بين :

ذكي ييز الحق من الباطل كمن يرى الالوان في نور الشمس الساطعة ،  
و كمن يقطع بسكين مشحودة .

وغبي كمن يرى الالوان في ظلمة الليل الهميم .

وثالث لا الى هؤلاء ، ولا الى هؤلاء ، وانما كمن يرى الأشياء تحت  
السحب الداكنة ، وهو يلبس نظارة سوداء تضيف ظلمة الى ظلمة ، وتضع  
حجاباً فوق حجاب . اذا كان العقل يتفاوت بين هذه الثلاث ، فان الضمير  
كذلك ليتفاوت كما يتفاوت العقل بين مراتب ثلاث تُمَيِّزُها أساليب الناس  
في هذه الحياة .

١ - ضمير يوجه صاحبه توجيهاً خاطئاً على معنى أن صاحبه لا تراه  
بعيش الا في طباع عامية غليظة حتى تلاشى مركز التوجيه فيه أو كاد ،  
فهو لا يأمر الا بسوء ، ولا يوجه إلا الى سوء ، ولا يحلو له أن ينتقل  
الا من سوء الى سوء : على أمن الناس يعتدى ، ولقوتهم يغتصب ، وعلى  
حرياتهم تراه حرباً عواناً . في أعراض الناس يُتاجر ، ومن نشر السموم  
بينهم يأخذ قوته ، ولوطنه وقومه يدبر المكائد ما دام ذلك يعود عليه  
بمنفع شخصى .

وصاحب هذا الضمير هو صاحب النفس الأمانة التي تميل الى الطبيعة  
البذيئة ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب الى الجهة السفلية  
فهي مأوى الشرور ، ومنبع الاخلاق الذميمة ، وهي التي يشير اليها القرآن  
الكريم في قوله : « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي »  
(يوسف ٥٣) وصاحب هذا الضمير هو ذلك الذي غلبت شهواته عقله  
ومن يصل الى هذه الدرجة تسكون البهائم خيرا منه كما يقول الغزالي في كتابه  
« مكاشفات القلوب » يقول ان الله تعالى خلَق الخلق على ثلاثة ضروب :

« خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ وَرَكَّبَ فِيهِمُ الْعَقْلَ ، وَلَمْ يُرْكَبْ فِيهِمُ الشَّهْوَةُ .

وخلَقَ الْبَهَائِمَ وَرَكَّبَ فِيهَا الشَّهْوَةَ وَلَمْ يُرْكَبْ فِيهَا الْعَقْلُ .

وخلَقَ ابْنَ آدَمَ وَرَكَّبَ فِيهِ الْعَقْلَ وَالشَّهْوَةَ فَمِنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ

فَالْبَهَائِمُ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَمِنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ (١)

ويعجبني أن يُحذَّر بعض الشعراء من مثل هذا الضمير فيقول :

اني ابتليت بأربع ماسلّطوا      الا لشدة شِقْوَتِي وعَنَائِي

ابليس والدنيا ونفسي والهوى      كيف الخلاص وكلهم أعدائي

وأرى الهوى تدعوا اليه خواطري      في ظلمة الشهوات والآراء

ولخطر مثل هذا الضمير على النظام الاجتماعي جعل الاسلام جهاد

النفس التي اختل فيها مركز التوجيه جعله هو الجهاد الأكبر . فالجهاد في

نظر الاسلام على ثلاثة أصناف :

جهاد في الحرب مع أعداء الحق وهو جهاد الظاهر كالذي في قوله تعالى : « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ( سورة المائدة آية ٥٤ ) .

وجهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة كقوله تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ( سورة النحل ١٢٥ ) .

وجهاد مع النفس الأمارة بالسوء كالذي في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » ( سورة العنكبوت ٦٩ ) وقوله صلوات الله عليه : « أفضل الجهاد جهاد النفس » .

وكان صحابة رسول الله إذا رجعوا من الحرب يقولون : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » .

ولمَّا سَمَّوْا الجهاد مع الهوى والنفس أكبر لأن الجهاد معها أدوم ، هاد الحرب في سبيل الحق يكون في وقت دون وقت . ولأن المحارب في سبيل الحق يرى العدو ، والجهاد مع عدو يراه الإنسان أسهل من الجهاد مع عدو لا يراه . ولأنك إذا قتلت عدو الحق فلك « الشهادة » وإن قتلتك نفسك وقَعْتَ في عقوبة الرحمن ، ولذلك يقول الكتاب العزيز : « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ( سورة البقرة ٨١ ) .

لكن هل هذا الضمير يُخلق مع الإنسان خلقاً على هذا النحو ، أو هو إنما يعرض بعد ذلك على معنى أن ما يحيط بالإنسان هو الذي يورثه ؟ . إن ما يحيط بالفرد من « عدل » و « ظلم » وغير عدل وظلم ، هو الذي

يُؤْتِرُ فِي الْإِنْسَانِ وَيُسْكُونُهُ : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ( سورة النحل ٧٨ ) ولذلك يحرص الإسلام الحرص كله على أن يتخذ ألف تحوط وتحوط بارع حول ذلك النبات الصغير — النشء — الذي يشق طريقه الى الحياة . فأحاطه ، أو أمر بأن يحاط بكل ما من شأنه أن يجعله « إنساناً » : أحاطه بسياج من نظام فيه أقصى ما يمكن أن يكون لصالح الفرد والجماعة : فأمر بالعدل « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » ( سورة الأنعام ١٥٢ ) .

وأمر بالتعاون : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ » ( سورة المائدة ٢ ) وأمر بحسن « السلوك » : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا » ( سورة الإسراء ٥٣ ) وأمر بالإصلاح بين الناس : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَاقْضَا تِلْكَ الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفْضِيَهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » ( سورة الحجرات ٩ ) وأمر بالاتحاد : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » ( سورة آل عمران ١٠٣ ) وأمر بأدام الأمانة : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ » ( سورة

البقرة ٢٨٣) إلى آخر ما أمر به الإسلام في هذا الباب من « العفافة » و « الاستقامة » و « البشاشة » و « الدعة » و « سلامة القلب » و « صدق الطوية » و « الصدق » و « الصبر » و « النظافة » و « الطاعة » و « الإحسان » مما لو تمسك به مجتمع لساد . ويوم كان محمد بن عبد الله ، وخلفاؤه يشرفون على تنفيذ قواعد هذا النظام كان العالم الإسلامي عالماً أخلاقياً على معنى أنه لم يكن هناك تناقض بين نتائج أفعال الأفراد وعقائدهم . ففكر مثلاً في هذه القاعدة : « ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض فضل إلا بالتقوى » .

وانظر كيف كانوا يخلصون في تنفيذ هذه القاعدة التي توجه الناس إلى « المساواة » بكل ما تحمله هذه الكلمة من مدلول .

وانظر إلى عمر يحمل دقيقاً وسمناً فيلقى بشيء منها في القدر ، ثم يصير ينفخ النار بفيه ، والدخان يتخلل لحيته حتى ينضج الطعام ولم يتركهم حتى لعبوا وضحكوا وناموا .

ثم أنظر إلى شعور مثل أفراد هذه الأسرة بعد هذا الصنيع الجميل . أي يمكن أن يحمل أحدهم ضغننا لهذا الوالي عمر ؟ عمر الذي يحيمه رسول قيصر يسأل عنه ليفاوضه في شأن « صلح » فيجده نائماً تحت شجرة في العراء يتوسد حذاءه ، فيبهت من هذا الخليفة : خليفة المسلمين الذين دوخو كسرى ، ورجال قيصر ، وأنزلوهم من قلاعهم صاغرين ، فيقف على رأسه وهو نائم فيقول : « حكمت فعدلت فأمنت فمنت يا عمر » .

ان « الاخلاص » في تنفيذ مثل هذه المبادئ الإنسانية كما كان يفعل



ابن الخطاب هو الذى يوجد الضمير الحى الذى يوجه الإنسان نحو الخير الأعلى .

وان الإخلاص فى تنفيذ مثل هذه المبادئ الانسانية هو الذى يوجد « الممثل » العليا التى تدفع الأفراد الى السيطرة على تلك النفس الأمارة بالسوء .

وان الاخلاص فى تنفيذ مثل هذه المبادئ هو الذى يدفع الأفراد فى سلوكهم لأن يسيروا على ضوء الأخلاق والدين ، وصدق رسول الله : « اثنان اذا صلحا صلحت الأمة واذا فسدا فسدت الأمة : « العلماء والأمرأ » . ولست فى حاجة إلى القول : بأن المراد بالأمرأ الحكام . ان المحيط وليس المحيط الضيق الذى نعيش فيه ، بل المحيط الواسع ، أو البيئة بمعناها العام هى التى تؤثر فى مركز التوجيه فى الإنسان ، وهو الضمير .

واذا كان « أرسطوطاليس » أحد أساتذة الأخلاق الأكرمين ذلك الذى يرى أن « المبدأ الحق فى كل شئ إنما هو الواقع » كان يقول : « ان أكثر الناس على ما يظهر على الحقيقة عبيد يختارون بمحض ذوقهم عيشة البائس » (١) .

فهل ياترى تغيرت هذه الحال ؟

يظهر أن ملاحظته « أرسطو » على الناس هو القاعدة دائماً ولذلك

---

(١) ج ١ ص ١٧٧ « كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس » ترجمة أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد :

يقول القرآن الكريم « وَإِنْ تَطِيعُوا كَثْرَةً مِّنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » (الأنعام ١١٦) ولعل « مكيا فلي » - ايطالى عاش فى القرن السادس عشر - إذن كان معذورا حين قال : « الناس بوجه عام منكرون للجميل ، متقلبون ، خونة ، جبناء طماعون ، وهم معك مادمت ناجحا ، ويبدلون لك دمهم وأموالهم وحياتهم ، ما لم تكن لك حاجة اليهم فإذا احتجت إليهم انقلبوا عليك .

ويذكرنى هذا بقول الشاعر العربى :

والناس من يلقى خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم الخطيء الهبل  
وعلى كلٍّ فالضمير الآن فى « أزمة » نرجو له منها الخلاص .  
أما كيف ومتى تنفرج هذه الأزمة ، فهى فى حاجة الى صبر طويل ، وجهد  
مكين على شرط أن تهتدى نفوسنا أولا الى « النقطة » التى منها نبدأ الشوط ،  
وليست الا فى أن نرجع الى الحق والله هو الحق المبين .

ومن غريب ما رأيت فى « أزمة الضمير » أن بعض الناس يوجههم  
ضميرهم توجيها هو أقسى ما يمكن أن يكون شدة وخطأ ، وهو أقسى ما يمكن  
أن يكون فظاعة وغلاظة ، وليس وجه الغرابة فى شدته ، أو فى خطئه ،  
ولا فى فظاعته أو غلاظته ، وإنما وجه الغرابة فى أن يوجههم ضميرهم هذا  
التوجيه الوحشى على أنه « دين » ولو صحت هذه الروايات التى سأنقل منها  
مثلا لكانت هى المثل الأول وهى المثل الأخير لأزمة الضمير .

فى مكتبة سماحة السيد أمين الحسينى مفتى فلسطين فى مصر الجديدة  
اطلعت على كتاب اسمه « صراخ البرى فى بوق الحرية والذباح التلويديّة

بقلم حبيب افندى فارس، فيه ما يفيد أن « اليهود » من فروضهم « الدينية، أن يعجنوا فطيراً لعيد الفصح بدم « بشر » - غير يهودى - ، وهذا الفطير لا يعطى منه عادة إلا للأتقيا من اليهود . والكتاب يروى حكايات كثيرة عن هذه « الدبائح » منها ذبيحة اعترف فيها أحد الذابحين بعد أن أُكِّن على أن يكون « شاهد ملك » وكان أن استُجوب الذابحون في يوم الجمعة ٢٥ فبراير سنة ١٨٤٠ بحضرة صاحب الدولة « شريف باشا وقنصل دولة فرنسا » وهنا ننقل بعض فقرات من أقوال بعض المعترفين « ص ١٥٧ »

س - لماذا قتلتم ... ؟

ج - لقد قتلناه لأجل الحصول على دمه ، وبعد أن وضعنا الدم في « قناني » أرسلناه إلى . . . . . وكنا نصنع ذلك اعتقاداً بأن الدم ضرورى لإتمام فروض ديانتنا . وفي ص ١٦٤ ما يأتى :

س - قلت : بأنهم أخذوا الدم لأجل الفطير مع ان الدم عند اليهود محرم ورجس فكيف هذا التناقض ؟ فسر لنا ذلك ؟

ج - بموجب « التلمود » دَمَان مقبولان عنده تعالى : دم الفصح ، ودم الطهور .

ولعل مثل هذا المثل هو الذى جعل « غرستاف لويون <sup>(١)</sup> » يقول :

---

(١) طبيب واجتماعى فرانسى . وقف نفسه على خدمة العلم وتقرير حقائقه حتى تجاوز الثمانين من سنى حياته . ولد عام ١٨٤١ . وفي حرب السبعين تولى رئاسة أطباء فرقة من فرق النقالات العسكرية المتحركة . ومن أهم مؤلفاته : حضارة العرب « عربية محمد بك مسعود » وحضارة الهند . وآثار الهند . ورحلة إلى جبال تتراس =

إن العاطفة الدينية لا تمشى دائماً مع الشعور الخلقى ، فالرجل الجهم التقي لا يكون أبداً أكثر الناس إحساناً ، بل ربما كان كثير الإساءة أحياناً ، والشعب الكثير التقي هو الأقل تسامحاً وتساهلاً فلا يحجم عن إتيان أشد أنواع التعذيب . وما كانت محكمة التفتيش إلا من عمل أشد الشعوب الأوربية تدبناً . (١)

ويظهر أنى مضطر هنا أيضاً إلى أن أقول كما قلت من قبل : « بل الرجل الجهم التقي يكون أبداً أكثر الناس إحساناً » لأن الجهم التقي يؤمن بأن الله معه دائماً . وإذا كنت تستحي من أن تفعل « موبقة » وإنسان معك فكيف إذا كنت تؤمن بأن « الله » هو الذى معك ١١٩

\*\*\*

يقول « فولتير » ذلك الفرنسى الشائر : « ليس الظلم فى أن يوجد ، وإنما الظلم فى الشعور به » وعلى هذا أذكر مثلاً لشعور بظلم استولى علينا ساعات من نهار من جراء « ضمير » بل لانزال نشعر به ، وقد وقع و « فات »

---

==ورحلة إلى جبال تبال والثورة الفرنسية وروح الثورات . والنتائج الأولى للحرب . والتعاليم النفسية للحرب الأوربية « عربيه أميل زيدان » والإنسان والجماعات . وسر تطور الأمم « عربيه فتحى زغلول » . وروح الاجتماع وروح الإشتراكية . وروح السياسية . وجوامع الكلام « عربيه أيضاً فتحى زغلول » وروح التربية « عربيه الدكتور طه حسين . وله عدا ذلك إبحاث ومذكرات كثيرة . » ترى أسماءها فى مقدمة كتاب الحضارات الأولى .

(١) ص ٦٠ مقدمة الحضارات الأولى

أمس أرسلت ولدى «عصام» إلى «المطبعة» بأصل من وريقات هذا الكتاب، وكان الوقت ظهراً أو يقرب على أن يُدرك «الغداء» في المنزل فمضى وقت «الغداء» وبعده ساعة وساعات، فانشغلنا وانشغلنا حتى مكثت «والدته» لا تعرف إلا أن تدور، وتدور من النافذة إلى الباب، ومن الباب إلى النافذة حتى كادت تبجن ونجن معها، وأخيراً دخل عمنا «عصام» ومعه «عسكري» فحمدنا الله على أن حضر، ولم نحمد لعصام هذا الحدث الذي جاء به يشبه أن يكون مقبوضاً عليه.

خيراً. ما هذا؟ أين كنت؟ فأعطانا «العسكري» «محضراً» وطلب أن يستلم هذا «العصام» «شيخ حارة» وفي الوقت نفسه سلبنى «عصام» «وريقتي» لم تسلم بعد إلى المطبعة. فأعرضت عنها إلى «المحضر» وإذا فيه ما يأتى :

س - لماذا كنت تركب على سلم «الترام» .

ج - استعداداً لدخول «العربة» وقفل المحضر . دعنا من هذا ، وأين كنت هذه الساعات الطوال ؟ كنت محجوزاً في «القسم» ولماذا لم تخبرنا «تليفونيا» بالمسألة ؟ أردت أن أخبركم بالحادثة فمنعوني . والتفت إلى «العسكري» فسأله : وماذا تريد «يا عم» ؟ فقال : أريد أن يضمّنه شيخ حارة . فقلت : ولماذا شيخ حارة ؟ أنا «والده» أستلمه . فرفض . فأخذ أخوه يبحث عن شيخ حارة فلم يجد فسكرتبت خطاباً منى إلى السيد المأمور أخبره بأنى نظراً لعدم وجود شيخ «حارة» أضمن «ابنى» فذهب العسكري ثم عاد إلينا ثانياً يخبرنا بأن هذا الخطاب لا قيمة له ولا بد من أن يضمّن

« شيخ حارة » وأخيراً ذهبوا يبحثون له عن شيخ حارة . حتى عثروا عليه .  
فطلب « نصف ريال » وإلا فلا ضمانه . وعلى الرغم من أن مجلس الدولة  
أفتى بأن هذا « النصف ريال » يعتبر رشوة . أعطوه . حتى يخلصوا من  
هذه « الدوشة » .

كلها أنصور حجز « الولد » في القسم هذه المدة الطويلة . وكلها أنصور  
منعه من أن يتصل بنا « بالتليفون » وكلها أنصور إحضاره من قسم بعيد  
عن قسم مصر الجديدة شبه مقبوض عليه ، وكلها أنصور أن إمعنائى وأنا  
« والده » لا يساوى إمعناء شيخ « حارة » كلها أنصور هذه الأشياء يزداد  
إيمانى بأن اصلاح « مركز التوجيه فى الإنسان » - الضمير - هو الأساس  
الأول ، وهو الأساس الأخير لكل اصلاح : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ  
حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » ، « الرعد ١١ » .

ومثل آخر لا زلت أشعر بأثر ما كان فيه من سوء توجيه حتى الساعة :  
استدعيت مرة إلى مكتب فضيلة وكيل شيخ الجامع الأزهر الشيخ  
« محمد عبداللطيف دراز » فسئلت : هل أنت قدمت شكوى ضد ... أنا ؟

نعم . أنت . فقلت مبهوئاً : لا . لم يحصل مطلقاً . وما أشد دهشتى  
وعجبى حينما ووجهت بورقة فيها اتهامات من « نار » بل أقسى من النار  
ضد ... ومذيلة بأمضائى . استغفر الله بل باسمى استغلة « ندل » ولا أدرى  
لماذا ؟ ... ووجه العجب الممض أنه من ... وكلها أنصور أيضاً هذا  
الحادث يزداد إيمانى بأن صلاح الأمة فى إصلاح « مركز التوجيه » عند  
أفرادها ، وهو « الضمير » لا فى أى شىء آخر فهو الأساس .

لكن هل يسلم صاحب مثل هذا الضمير سلامة مطلقة من تأنيب ضميره ؟  
يقول « وليم جيمس » في مؤلفه « العقل والدين » ليس هناك من اليقين  
الذى لا يعتريه الشك إلا حقيقة واحدة ، وهى تلك الحقيقة التى لم تقدر  
فلسفة الشك نفسها أن تهدمها . ألا وهى « وجود ظاهرة الشعور » (١)  
فما دام الشعور موجوداً فلا يمكن أن يسلم إنسان من تأنيب ضميره ،  
وإن اختلف قوة وضعف تبعاً لدرجة الشعور عند الإنسان . أما إذا أصيب  
الإنسان فى « شعوره » فثله كمن يصاب فى « عقله » يسقط من الحساب .  
هذه درجة من درجات « الضمير » والنصطاح على تسميته  
بالضمير الأسفل .

\*\*\*

٢ — ويقابل هذا الضمير « الأسفل » يقابله الضمير « الأعلى » وهذا  
الضمير لا يوجه صاحبه إلا إلى ما يرى هو أنه خير سواء وافق العرف  
والتقاليد أم خالف العرف والتقاليد وسواء وافق القانون أم لم يوافق  
القانون وسواء رضى الناس أم سخطوا . هذا هو ضمير الأنبياء ، والرسل ،  
وضمير كبار المصلحين الذين لا يثنيهم تهديد ، أو وعيد عما يرون تقريره  
لصالح الإنسانية مهما نالهم فى سبيل ذلك من عناء واضطهاد وتعذيب  
أو تشريد . وخير مثال لهذا الضمير هو محمد بن عبد الله انظر إليه يقول لعمه  
وقد تألب العرب عليه : — والله يا عم لو وضعه الشمس فى يمينى ، والقمر  
(١) ترجمة الدكتور محمود حب الله ص ١٧ « طبعة دار إحياء الكتب العربية  
لعمى الباب الحلبى وشركاه » .

في يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله .

٣ — والدرجة الثالثة من درجات الضمير درجة وسط بين « الأسفل » و « الأعلى » ، وهى درجة الذين يرون الخير في طاعة القانون أيا كان : « وضعياً ، أم « دينياً ، أم « أخلاقياً ، وترى صاحب مثل هذا الضمير لا يسمح لنفسه على الإطلاق أن يخرج على القانون .

وإذا كنت ترى صاحب « الضمير » « الأعلى » ، في ثورة على الأوضاع التى لا يرى فيها للإنسانية خيراً أو التى يرى أنها أصبحت لا تلائم روح عصره ولا تتصل بأصل من مقومات وطنه إذا كان صاحب « الضمير » « الأعلى » من شأنه ذلك لأنه يسبق زمنه فان صاحب الضمير « الوسط » ، تراه في « طمأنينة » يعيش بها ، أو يطلب أن يعيش بها « هادئاً » « آمناً » « سالماً » .

وإذا كانت مرتبة الضمير « الأعلى » ، هى مرتبة « زعماء الإصلاح » . و « الفلاسفة » ، فأنت لترى كثيراً من « الأدعياء » يخرجون على ما ألف الناس من « عرف » و « عادات » و « تقاليد » يخرجون عليها لغير منفعة ضرورية يحتملها الناس ، وإنما يخرجون ليتفلسفوا بهذا الخروج على قاعدة « خالف تعرف » .

بقى علينا في هذا الباب قبل أن ننظر إلى الإنسان المثالي ، أو إلى المثل الأعلى الذى يهدف إليه من يريد أن يكون مثالياً . بقى علينا أن نتساءل :

هل ضمير السياسى ينبغى أن يكون مثل ضمير الفرد ؟ على معنى أنا إذا طلبنا من الفرد ألا يحيد مطلقاً عن « الصدق » ، في معاملاته



مع غيره من الأفراد فهل نطلب من السياسى الذى يدير دفة شئون بلاده  
مع دول «تمسك» به هل نطلب منه هو الآخر ألا يحيد عن «الصدق»  
وأن يعامل «الدول» كما يعامل «الأفراد» ؟

يقول الكتاب العزيز : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ »  
« النساء ٦٩ » ويقول صلوات الله عليه : « ان المؤمن كيس فطن حذر »  
رواه القضاعى عن أنس « الفتح الكبير ح ٣ ص ٢٥١ » وقيل لعمر رضى الله  
عنه : فلان لا يعرف الشر قال : ذلك أخرى أن يقع فيه . ومعنى كل هذا  
أنه ينبغى للإنسان ألا يكون « ساذجا » بل ينبغى أن يكون دائما أبداً على  
« حذر » من خداع الخداعين ، ومكر الماكرين ، وكيد الكائدين . وإذا  
كان « الحذر » مطلوباً فإنه للسياسى أشد طلباً .

اننى أعتقد أن من عوامل قيام دولة « إسرائيل » « سلامة طوية »  
العرب ، و « خبث » اليهود ومن كان يظاھرهم ضد العرب .  
سمعت بنفسى من سماحة السيد أمين الحسينى مفتى فلسطين يقول : ان  
اليهود ومن يظاھرهم رأوا فيما بينهم أن أسلم طريقة لقيام « إسرائيل » أن  
تدخل الدول العربية الحرب ضد اليهود حتى لا تعيش إسرائيل عمرها فى  
حرب عصابات مع العرب ، فأوعزوا الى الدول العربية بأن تدخل الحرب  
ثم تألبوا عليها وكادوا لها بمسألة « الهدنة » المشنومة .

انظر كيف « مكروا » بالعرب ، ولو كان العرب على « حذر » من  
« خبث » اليهود ، ما استطاع اليهود ولا غير اليهود أن يقيموا لهم دولة  
فى « قلب » البلاد العربية . لذلك ينبغى لمن يتصدى للأشتغال بالسياسة

أن يكون أشد حذرا من اليهود . و « أصبر » من الانجليز .

هذا وان تفاوت الناس في الحسن « الباطن » ، كتفاوتهم في الحسن « الظاهر » ، ولن يسلم الحسن المطلق الا على التدور . وايسست النجاة موقوفة على الكمال البالغ ، لكن على أن يكون الميل الى الحسن أكثر .

وخير ما أنتم به هذا الباب قصيدة الإمام « الغزالي » ، « الهائية » ، في وصف « النفس » ، وتأنيب « الضمير » ، قال :

|                                      |                                          |
|--------------------------------------|------------------------------------------|
| ما بال نفسي تطيل شكواها              | الى الورى وهى ترتجى الله                 |
| يُفسد اخلاصها شكايته                 | ذاك الذى راعها وأرداها                   |
| لو أنها من مليكها اقتربت             | وأخلصت ودّها لأدناها                     |
| لكنها آثرت بريته                     | عليه جهلا به فأقصاها                     |
| أفقرها للورى <sup>(١)</sup> ولو لجأت | اليه من دونهم لأغناها                    |
| تشكو الى خلقه كأهم                   | قد ما سكووا فقمها وضرّاها <sup>(٢)</sup> |
| لو فوضت أمرها لخالقها                | وضحت صدقها وتكلاها <sup>(٣)</sup>        |
| عوضها من همومها فرجا                 | ولم يدعها بطول غمّاها                    |
| تسخطه فى رضا بريته                   | تبأ لها ما أجلّ بلواها                   |

(١) الخلق

(٢) بالفتح مصدر وبالضم إسم

(٣) التكلان : إسم من التوكل وهو إظهار العجز .

لو أنها للعباد مسخطة  
لدى نفس أحب أنعتها  
فاسمع صفاتي لها لعلك أن  
تسعى الى الله وهو غايتها  
أزجرها وهي لي مخالفة  
تنظر في عيب غيرها سفاها  
قد ظلمتني بسوء عشرتها  
كثيرة اللغو في مجالسها  
قليلة الشكر عند نعمتها  
بطيئة السعى في مصالحها  
كثيرة المظل في مواعدها  
بصيرة بالهوى وفتنته  
نشيطة عند وقت لذتها  
نؤومة العين عن عبادة من  
كثيرة الأمن عند صحتها  
حليفة الكبر والرياء فقد  
عظيمة المدح والثناء لمن  
مطيله الذم بالقبیح لمن  
تفرح في أكلها ومشربها  
ذاكرة للورى مساوئهم

مرضية ربها لارضائها  
لتعرفوا نعمتها وأسمائها  
تفهم ذا اللب سر معناها  
ياويلها ما أضر مسعاها  
كأننى لست من أودائها  
وكم عيوب لها فتنسائها  
ولم تدع لي تقوى ولا جاها  
قليلة الذكر في مصلاها  
ضعيفة الصبر عند بلواها  
سريعة الجرى في بلاياها  
كذوبة في جميع دعواها  
عمية عن أمور آخرها  
كاسلة عند وقت ذكرها  
أتقن تصويرها فسواها  
عظيمة الخوف عند ضراها  
أفسدها كبرها وأطغاها  
يرفع مقدارها ومثواها  
عرفها قدرها وطغيها  
وخبئها للضام أغراها  
ناسية ما جناه كفرها

كم بين نفسى وبين نفس قى  
 علمها رشدها وبصرها  
 أقامها فى الدجى على قدم  
 إذا اشتت شهوة يعودها  
 وراضها بالصيام فانقمعت  
 ذاكرة الإله شاكرة  
 لله نفس امرئ موفقة  
 شرفها ربها وكرمها  
 سميت إليه بحسن فكرتها  
 تلك التى إن دعت لحاجتها  
 إن بايت بالخطوب صبرها  
 ليست كنفس لدى عاصية  
 وهى لأمر الإله عاصية  
 كيف إلى ربها تنوب وقد  
 فكلمها قلت نفس ازدجرى  
 صممت عن الحق وهى سامعة  
 لو علمت بعض ماله خلقت  
 لو تعرف الله حق معرفة  
 لكنها جهلها بخالقها  
 ياويح نفسى والويح حق لها  
 طهرها بالتقى ونقاها  
 ثم بقوت الحلال غذاها  
 فانهملت بالدموع عينها  
 بخوف معبودها فسلاها  
 بالرغم عن غيها ومغراها  
 مخلصه سرها ونجواها  
 آوت إلى ربها فأواها  
 ومن مياه اليقين أرواها  
 ثم صافى ودادها فصفاها  
 أجابها مسرعا ولباها  
 أو سألت ما يريد أعطاها  
 أمرها جاهداً وأنهاها  
 وبلى لما قد جنت وويلها  
 ذلت لشيطانها فأغراها  
 وراقبى فى أمورك الله  
 كأننى ما أريد إياها  
 أحزنها علمها وأبكها  
 لصححت برها وتقواها  
 أغفلها رشدها وألهاها  
 إن صدها ربها وأرداها

|                          |                         |
|--------------------------|-------------------------|
| تدري إلى ما يكون عقباها  | تفرها لذة الحياة وما    |
| لم أك أعصى الإله لولاها  | قد ضقت ذرعا بها وأحبسها |
| وأظهرت وحشة وأكراها      | إن أنا حاولت طاعة ففرت  |
| تأمرني بالهوى وأنهاها    | صرت مع النفس في محاربة  |
| أدرع الصبر عند لقيها     | نحن كقرنين في معاركة    |
| وأى صبر يطيق هيجها       | وهى بجند الهوى مبارزنى  |
| أو ضعفت في اللقاء قواها  | إن جبت بالقتال شجعها    |
| لكن لها سبق حين ألقاها   | أصرعها تارة وتصرعنى     |
| كأننى لست من أحباها      | أحبها وهى لى معادية     |
| ياليتنى أستطيع أنساها    | عدوة لا أطيق أبغضها     |
| جائبة فى سدول ظلهاها     | ساجدة فى بحار فتنها     |
| خاسرة دينها ودنياها      | أحبسها إن أبت موافقى    |
| واغسل بماء التقي خطاياها | يا رب عجل لها بتوبتها   |
| من ذا الذى يرتجى لرحماها | إن تك يا سيدي معذبها    |
| إنك خلأقها ومولاها       | فالطف بها واغفر خطيئها  |